عمر بن عبد العزيز

للاستاذ محمود شلبى

(٧)

فسأل عمر : ماذا ؟.. لماذا جئتم به ؟

وكانت أم ذلك الطفل واسمها مريئة ، من ورائه ، فقالت : هذا ابنى وهو يتيم .

فقالت فاطمة بنت عبد الملك ، وهى فى جنون من الغضب : أمن أجل أنه ابنك وأنه يتيم يهجم على ابنى وهو أصغر منه سنا ، ويضربه بحجر فيفتح به رأسه !؟

وانتظر الجميع فصل الخطاب من عمر .

فجعل أمير المؤمنين يهون على مريئة ويقول : لا تخافى .. ما الذى حدث؟

فقصت الام عليه القصة وأنبأته أن ولدها يتيم .

فما أن سمع عمر قولها حتى قال على الفور : هل فرض له فى بيت المال ؟

قالت مريئة ، وقد ذهب عنها ما بها من خوف على ولدها : كلا يا سيدى.

عمر : كيف ؟.. ان له حقا معلوما فى بيت المال لانه يتيم ، وأعلم أن مثله يستحق الاعانة ؟..

فقالت الام : ولكن هذا ما حدث يا أمير المؤمنين .

فقال عمر لمن حوله : اكتبوه فى المستحقين .

وصاحت فاطمة : ولكن ولدك الذى يسيل منه الدم بغير ذنب .

فلم يزد أمير المؤمنين على أن قال فى طمأنينة : على رسلك يا فاطمة .. **(ذلك يتيم أرعبتموه !!)**

وخرجت الام وولدها لا تكاد تحملهما أرجلهما من الفرح والسرور !

ذلك ما قضى به عمر فى قضية رفعت اليه ، والجانى فيها صبى غريب ،

والمجنى عليه ابنه الصغير ، والشهود أمهات الصبيين ، تلك غريبـــة عنه ، وهذه زوجه .

فهل كان لعاطفة الابوة والقرابة سبيل على عقله وحكمه ؟

اللهم أنت تشهد أن عمر بن عبد العزيز قضى فى تلك القضـــية بما هو فوق طاقة البشر !!

ولو أن مثل تلك القضية رفعت الى انسان ما ، فقضى فيها بأن يفتـــح الصبى المجنى عليه رأس الصبى الجانى ، لقيل ذلك هو العدل ، والســـن بالسن والبادى أظلم .

ولو أنه قضى فيها ، أن يضرب الصبى الجانى ، لقيل غاية الرأفة والرحمة أن يفعل به ذلك .

ولو أنه قضى فيها ، بشتم الصبى وايلامه بقارص الكلم ، لقيل انما كان ذلك عن تساهل من القاضى .

فكيف وعمر لم يفعل شيئا من ذلك كله ، ولا ما هو أهون من ذلك كله ، وهو أن يتغير لونه ولو قليلا ، ويغضب ولو يسيرا ، عندما يرى ابنه وقـد فتحت رأسه ، وتدفق منها الدم غزيرا . وذلك شعور لا يؤاخذ عليه ، وهو شىء لا يدافع ولا سبيل للانسان عليه .

الا أن عمر لم يظهر عليه حتى ذلك الشـــعور الذى هو غريزى فى كل انسان !

بل ترك المشاعر الانسانية جانبا ، ومات فيه احساس الأبوة ، وغلب عليه اذ ذاك احساس ربانى رفيع .

غلب عليه العطف على الطفل الجانى لانه يتيم .

يتيم ؟..

كلمة خرجت من فم مريئة تدافع بها عن نفسها وولدها ، مخـــافة أن يبطشوا به .

فما كان من أمير المؤمنـين الا أن التقطها بقلبه ، فاهتز لهـــا وجدانه ، وانتفضت لها روحه الطاهرة ، وناداها : لبيك يا مريئة لبيك .. هونى هونى عليك .. أكتبوه فى المستحقين !..

ذلك ما قضى به عمر بن عبد العزيز فى تلك القضية .

وهو لعمرى قضاء فوق ما يكون القضاء ، وحكم ليست تدانيه الاحكام .

وعمر بن عبد العزيز فى ذلك الحكم ، يرتفع عندى الى ما يدانى مقام الخليل ابراهيم عليه السلام « **اذ قال له ربه اسلم ، قال أسلمت لرب العالمين** »·

ذلك أن ابراهيم عليه السلام عندما أضجع ابنه الصبى الصغير اسماعيل عليه السلام ليذبحه امتثالا لأمر الله ، لم يكن فاقدا لشعور الابوة وحنانها على ولده ، وانما كان يحس احساسا عاليا فوق ذلك الاحساس الغريزى · كان عليه السلام يغلب عليه الاحساس بطاعة الله ، يحب الله وأمر الله أكثر مما يحب ابنه ، فغلب احساس على احساس ، وكان ما كان منه عليه السلام ·

وذلك هو المعين الذى فاض منه تصرف عمر بن عبدالعزيز فى تلك القضية·

فكما أن الخليل عليه السلام رضى ذبح ابنه ارضاء لله وحبا لله ·

فكذلك عمر بن عبدالعزيز نسى ماحدث لابنه ارضاء لله وحبا فيما عندالله·

وبذلك يرتفع عمر بن عبدالعزيز الى مقام عزيز ، لا يدانيه فيه الاالقليل·

وخرج عمر بن عبد العزيز يوما يتنزه فى بساتين دمشق الغناء وفى رفقته « رجاء » فوقف على راهب يجلس جلسة المفكر المتأمل ·

فقال عمر للراهب : عظنى ·

فقال الراهب : عليك بقول الشاعر :

تجرد من الدنيا فانك انما
خرجت الى الدنيا وانت مجرد

فقال عمر : جزاك الله خيرا ·

واستدعى عمر « أبا سلام » من العراق ، فلما مثل أمامه قال : ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافهنى بحديث الحوض مشافهة ·

فقال أبو سلام : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **حوضى ما بين عدن الى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، وأول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوسا ، الدنس ثيابا ، الذين لاينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد** »

فقال عمر : لكنى نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ·

لقد كان رضى الله عنه يخشى أن يحول زواجه بفاطمة بنت عبد الملك – وهى بنت الخليفة – وبين السبق فى الآخرة !

وهذا مقياس لعمر الله ، رفيع فى ميزان النفوس .

* * *

ودخل عليه ذات ليلة – وهو أمير المؤمنين – رجال يسمرون عنده ، فرأوا عنده مصباحين ، فسألوه فى ذلك فقال : أما أحدهما فملك لبيت المال ، وأما الآخر فملكى الخاص . أكتب على الاول حوائج المسلمين ، وأكتب على الثانى أعمالى الخاصة .

ثم هبت ريح شديدة ، فأطفأت السراج ، فنهض عمر يصلحه ويوقده ، فقيل له : لو أيقظت غلامك فأشعله بدلا منك .

فقال عمر : لا أحب أن أجمع عليه عملين ! .

فقال أحد الجالسين : أنا أوقده اذن يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : ليس من المروءة استخدام الضيف . تأمل ما فى هذه الفعلة من آيات الأخلاق وبدائع الصفات .

حاكم الدنيا يأبى أن يستعمل مصباح الدولة فى حوائجه ، وانما يشعل مصباحه اذا كان فى أمر نفسه ، ويشعل مصباح الدولة اذا كان فى أمر الدولة !

بل وأبدع من ذلك ، لا يريد أن يجمع على خادمه عملين ، عمل بالليل وعمل بالنهار ، وتركه ينام ليستريح من عمل النهار .

فأين ذلك من استبداد الناس فى هذا الزمان بالخدم ، وتسخيرهم فى غير ما رأفة ولا رحمة

وفوق ذلك وذلك يأبى أن يشعل أحد ضيفانه المصباح لأن ذلك ليس من المروءة !! .

محمود شلبى

* * *